



الإمام سحنون وإسهاماته في انتشار المذهب المالكي
في الغرب الإسلامي

*Imam Sahnoun and his contributions to the spread of the Maliki
school of thought in the Islamic West*

ماجي لخضر.

¹ جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الجزائر

مخبر البحث: المجتمع ومشاكل التنمية المحلية في الجزائر - جامعة الشلف -

l.madji@univ-chlef.dz

دة/ بوكريديمي نعيمة .

² جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف- الجزائر

boukridiminaima@gmail.com

تاريخ القبول: 2022 /08 / 26

تاريخ الاستلام: 2022 /06 / 08

Abstract: *In This research papier, we try to shed light on the role of Imam Sahnoun, in spreading the Maliki thought in the Islamic West. Indeed, through the books “E-Tabakat” and “E-Tarikh”, especially the Maliki ones, we find great praise and extensive mention of his personality and his role in that. Moreover, his book of al-Mudawwanah has a clear impact and a clear value for every student of Maliki, in addition to that he is mentioned in many studies, whether historical or doctrinal, especially those related to the countries of the Maghreb in general and the city of Kairouan in particular. For this reason, we decided not to follow the traditional pattern in studying the characters, and we contented ourselves with translating it with small glimpses of repetition due to the saturation of the subject by previous studies. We tried to focus in this research on the core of the subject, which is the role of Imam Sahnoun in the spread of the Maliki thought in the Islamic West and everything related to that.*

Keywords: *Imam Sahnoun; spreading the Maliki thought ; the Islamic West ; the Maliki thought*

المؤلف المرسل: ماجي لخضر.

البريد الإلكتروني: l.madji@univ-chlef.dz

الملخص:

نحاول من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على دور الإمام أبوسعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي المعروف بالإمام سحنون في التمكين للمذهب المالكي في الغرب الإسلامي، فمن خلال كتب الطبقات والتاريخ وخاصة المالكية منها نجد الثناء الكبير والذكر الواسع لشخصه ودوره في ذلك، كما أن لمؤلفه المدونة الأثر الواضح والقيمة الجليلة لكل دارس ومتفقه مالكي، وله ذكر وسيرته في عديد الدراسات سواء التاريخية أو المذهبية خاصة تلك التي لها صلة ببلاد المغرب عامة ومدينة القيروان خاصة، لهذا ارتأينا عدم إتباع النمط التقليدي في دراسة الشخصيات واكتفينا في ترجمته بلمحات صغيرة لما في ذلك من التكرار بحكم تشبع الموضوع بالدراسات السابقة، وحاولنا التركيز في بحثنا هذا على لب الموضوع ألا وهو دور الإمام سحنون في انتشار المذهب المالكي في الغرب الإسلامي وكل ما له صلة بذلك، والله ولي التوفيق.

الكلمات المفتاحية: الإمام سحنون؛ الغرب الإسلامي؛ المذهب المالكي؛

التمكين للمذهب المالكي؛

مقدمة

اختلفت مناطق انتشار المذاهب الإسلامية في شتى أصقاع العالم الإسلامي لعدة أسباب وعوامل، وقد غلب المذهب المالكي على بلاد الغرب الإسلامي، بشقيها الشمال إفريقي والأندلس، رغم سبقية المذهبين الحنفي بالمغرب والأوزاعي



بالأندلس، إلا أنهما تراجعا فيما بعد أمام المذهب المالكي، وأرجع الباحثون هذا الانتشار لعدة أسباب نذكر منها طبيعة سكان المنطقة المحافظة، وارتباطهم الروحي القوي بصاحب الرسالة وكل ما يمت بصلة لذلك، أي كون المذهب المالكي مذهب أهل مدينة رسول الله ﷺ، كما كان لشخص الإمام مالك رحمه الله ومعاملته لأهل المغرب، وتقديمه لهم الأثر في نفوسهم، أضف إلى ذلك الرحلة العلمية التي كانت غالبا ما تمر على المدينة لارتباطها بركن الحج، دون التوجه لباقي المناطق بحكم البعد الجغرافي وعوامل أخرى لا يوسع المجال لذكرها.

ولا يخفى على عاقل أن هذا الانتشار كان بفعل رجال بذلوا جهودا في ذلك وكان لهم الفضل في غلبة المذهب على المنطقة، وممن زخرت الكتب بالثناء عليه وحتى عزو انتشار المذهب بالمنطقة لجهوده، الإمام سحنون بن سعيد. فما مدى صحة الفرضية القائلة بفكرة فضل انتشار المذهب المالكي يعود للإمام سحنون؟ وما هي الحجج التي تدعم هذا الرأي؟ وما هي العوامل التي مهدت لذلك؟ وما هي الوسائل التي أهلت سحنون ليكون له الفضل في التمكين للمذهب المالكي ببلاد المغرب؟

1. التعريف بشخصية الإمام سحنون بن سعيد

1.1. نسب الإمام سحنون ونشأته:

أبو سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي الملقب بسحنون، نسبة إلى تنوخ وهي قبيلة من عرب الشام، اسمه عبد السلام ولقب بسحنون باسم طائر حديد لحدة في المسائل، والقصد بالطائر الحديد أي طائر حاد البصر، جاء في معالم الإيمان "سي سحنون باسم طائر حديد البصر"، وقال الذهبي "وتفسير سحنون بأنه طائر بالمغرب يعرف بالفطنة والتحرز"، وهو عربي من الشام من أهل حمص

جاء والده في جند حمص ، ولد على الأرجح بالقيروان سنة (160هـ/766م) وقيل 161هـ ، نشأ سحنون في أسرة ميسورة الحال وقد بقي له منها أملاك وأرض فكان يفلح تلك الأرض واستغنى بها عن الحاجة إلى العمل وإلى السلطان والدولة واهتم بطلب العلم ، وله ذكر حسن وثناء عليه في علمه وحسن سيرته ورفعة أخلاقه ممن عاصره وجاء من بعده، قال أبو العرب في الثناء عليه أنه اجتمع فيه: "الفقه البارع والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشّن في الملبس والمطعم، والسماحة والترك، لا يقبل من السلطان شيئاً" ، وتوفي رحمه الله يوم الثلاثاء السابع من رجب سنة (240هـ/855م)، ودفن في نفس اليوم وصلى عليه الأمير محمد بن الأغلب وكان سنه يوم مات ثمانون سنة .

أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول.

2.1. طلبه العلم ورحلته في ذلك

بدأ في طلب العلم بالقيروان في سن مبكرة على مشايخها كأبي خارجة والبهلول بن راشد ، وعلي بن زياد الذي كان بمدينة تونس حيث كان يرتحل إليه كلما تسنى له ذلك ولم يذكر تاريخ محدد لرحلته إليه، غير انه يمكن استنتاجها إذا أخذنا بقول المالكي: ورحل في طلب العلم في حياة مالك وهو بن ثمانية عشر عاماً أو تسعة عشر وكانت رحلته إلى بن زياد بتونس وقت رحلة ابن بكير إلى مالك أي في 179هـ، وأخذ أيضاً عن ابن غانم، وابن أشرس وغيرهم¹.

هناك اختلاف في تاريخ رحلته العلمية إلى المشرق حيث يذكر أبو العرب أنها كانت سنة 188هـ²، فيما جاء في ترتيب المدارك للقاضي عياض إلى جانب هذا القول



أن ابنه قال: "خرج إلى مصر أول سنة ثمان وسبعين 178هـ في حياة مالك، ومات مالك وهو ابن ثمانية عشر أو تسعة عشر"³، بينما هناك اتفاق في تاريخ عودته إلى إفريقية الذي كان سنة 191هـ، ومن خلال هذه المعطيات نجد أن لسحنون رحلتان أو نأخذ بالرأي الثاني وهو الراجح حسب مجموعة من المراجع⁴ أي أن رحلته كانت سنة 178هـ، وهذا لعدة اعتبارات منها سماعه من ابن نافع وملازمته له سنتين وقد توفي هذا الأخير سنة 186هـ، كما أنه سمع ولازم مجموعة العلماء في رحلته إلى مصر والحجاز خاصة كبار تلاميذ مالك نذكر منهم عبد الرحمان ابن القاسم الذي صحح وراجع معه المدونة وهذا يستغرق وقت ليس باليسير، وأشهب وابن وهب، وأخذ أيضا عن سفيان بن عيينة ووكيع وشعيب بن الليث، ومما يدعم هذا الرأي قول سحنون: "كنت عند ابن القاسم، وجوابات مالك ترد عليه، ف قيل له: فما منعك من السماع منه، قال قلة الدراهم"، ومعروف أن مالك رحمه الله توفي سنة 179هـ، أي أن رحلته كانت قبل هذا التاريخ⁵.

وهناك رأي آخر لنجم الدين الهنتاتي حيث يرى أن تاريخ رحلته كان سنة 186هـ/802م⁶، وهذا بحساب بسيط على خبر جاء به ابن فرحون والقاضي عياض أن سحنون قال: "وخرجت إلى ابن القاسم، ابن خمس وعشرين وقدمت إفريقية ابن ثلاثين سنة"⁷، وبترجيح أن ميلاده كان سنة 161هـ، يكون تاريخ رحلته على ما قاله الهنتاتي سنة 186هـ، أي استغرقت رحلته خمس سنوات، ويؤيد رأيه بأن سحنون قصد ابن القاسم ومعه الأسدية التي جاء بها أسد إفريقية حوالي 181هـ⁸، عاد

سحنون إلى القيروان على ما هو متفق عليه سنة 191هـ، بعد تعريجه على طرابلس حيث قرأ عليهم كتابه المدونة والذي عرف بالمختلطة لأنه لم يكن قد رتب أبوابها⁹، كما أنه مر أيضاً بأجدايبة، يقول سحنون: سمع مني العلم سنة إحدى وتسعين ومائة أهل أجدايبة، وفي تلك السنة مات عبد الرحمن بن القاسم¹⁰.

3.1: بقية أخباره

عاد سحنون إلى القيروان ب زاد علمي كبير حيث شهد له الكثير من العلماء والأفاضل بذلك قال عيسى بن مسكين: "سحنون راهب هذه الأمة ولم يكن بين مالك وسحنون أحد أفقه من سحنون"، وقال أشهب: "ما قدم إلينا من المغرب مثله"¹¹، اهتم بنشر العلم فقد أخذ عنه مجموعة كبيرة من الطلبة من كل أصقاع الغرب الإسلامي، في وقت كان المذهب المالكي قد انتشر كون أن هناك أكثر من ثلاثين شخصاً رحل إلى مالك وسمع منه غير أن مجيء سحنون كان بمثابة مبتدأ جديد للمذهب بالمنطقة¹²، وقد بارك الله له في المسلمين ومالت له القلوب وأحبه العامة، قال ابن عجلان الأندلسي: "ما بورك لأحد بعد أصحاب رسول الله ﷺ ما بورك لسحنون في أصحابه إنهم كانوا بكل بلد أئمة"¹³، ومن أشهر من عاصره وكان له عونا على نشر المذهب بالمنطقة أصحابه "فكانوا سراج أهل القيروان و ابنه عالمها وأكثرهم تأليفاً وابن عبدوس فقيهما وابن غافق عاقلها. وابن عمر حافظها وجبله زاهداً وحمديس أصلهم في السنة وأعداهم للبدعة وسعيد بن الحداد لسانها وفصيحتها وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث وأشدهم وقاراً وتصاوناً كل هذه الصفات مقصورة على وقتهم"¹⁴.



تولى سحنون أيضا القضاء بعد إلحاح كبير من الأمير الأغلبي محمد بن الأغلب وقيل أنه مر عام كامل وهو يراوده على الأمر، وسحنون يرفض الأمر، ليقبل بشروط بعد تعنت الوالي وحلفه بأغلظ الأيمان، وكانت ولاية سحنون للقضاء ست سنوات (234هـ/849م، 240هـ/855م) حيث استمر في ولايته على القضاء حتى وفاته¹⁵، فكانت ولايته للقضاء مرحلة ساد فيها العدل وانتظمت الأمور قال عيسى بن مسكين: "حصل الناس بولايته على شريعة الحق، ولم يول القضاء مثله بإفريقية"¹⁶، كما نظم الأسواق وحارب الفساد والغش المنشر فيها وكانت قبل ذلك من اختصاص الولاة والمحاسبين، و كان يؤدب المتخاصمين إذا تعرضوا لبعضهم البعض بالكلام أو للشهود أضف إلى ذلك أنه يخلق الجو المناسب للشهود للإدلاء بشهادتهم دون ضغط، كما خصص مكان للتقاضي يدخله المعنيون بالقضية فقط لإبعاد الضغط وحفظ أسرارهم، وكان يكتب قائمة بأسماء المتخاصمين والشهود وينادى عليهم للتقاضي، وله إصلاحات عديدة في المجال القضائي لا يسع المقال للتفصيل فيها¹⁷، وما يهمنا في هذا السياق تولى سحنون للقضاء بمثابة النقلة النوعية من أجل التمكين للمذهب المالكي أكثر بالمنطقة

2. دور الإمام سحنون في التمكين للمذهب المالكي

1.2. ولايته القضاء وأثرها في انتشار المذهب

وفيما يخص ما يهمننا أي دور سحنون في نشر المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، كان لسيرته الطيبة خلال ولاية القضاء الأثر في تولية الأمراء للقضاة وأصحاب الفتوى ممن لهم باع في الفقه خاصة المالكي، والتزم عامة الناس بأحكامهم وفتاويهم وزاد أتباع المذهب¹⁸، وعن الآليات المتخذة من طرفه في هذا المجال "كان أول من شرد أهل الأهواء من المسجد الجامع، وكانوا فيه حلقا للصفرية، والإباضية مظهرين لزيغهم، وعزلهم أن يكونوا أئمة للناس أول معلمين لصبيانهم أو مؤدبين، وأمرهم ألا يجتمعوا، وأدب جماعة بعد هذا خالفوا أمره، وتوب جماعة منهم"¹⁹، وبهذه الإجراءات حصر الحرية المفرطة التي كانت في المنطقة مما شكل جوا مناسباً لانتشار المذهب المالكي وحصر انتشار مختلف الفرق وما تحمله من انحرافات فكرية وعقدية، ونخص بالذكر هنا المعتزلة والذين قويت شوكتهم موازاة مع اتخاذ الدولة العباسية للاعتزال مذهباً رسمياً، وكان سحنون قد أمتحن في هذا السياق حيث كان القاضي الذي سبقه ابن أبي الجواد معتزلياً فرفض الصلاة خلفه في جنازة أخيه من الرضاة، ولما بلغ الوالي ذلك أمر بمعاقبته، وأنفذه من العقوبة شفاعاً أحد الوزراء فيه، وحتى في هذا الموقف العصيب لم يرى في نفسه الرفعة وكان متواضعاً فلما بلغه خبر معاقبته وبعدها العفو عنه قال: "لم أبلغ أنا مبلغ من ضرب، إنما يضرب، مثل مالك وابن المسيب"²⁰.

ولعل أخطر موقف مر به سحنون هو الذي وقع له في محنة خلق القرآن والتي فقد الكثير من العلماء في مختلف أصقاع العالم الإسلامي حياتهم فيها، وعلى



خطى الخلفاء العباسيين قام الولاة بامتحان الفقهاء وأهل العلم في مسألة خلق القرآن، وكان من ضمنهم الإمام سحنون، ففي ولاية زيادة الله بن الأغلب²¹ 223هـ/838م، قام بإحضار سحنون إلى القصر وأمام كبار قاداته وحاشيته سأله عن المسألة فكان جواب سحنون قول الحق دون الخوف من عاقبة الأمر، وكان جوابه أن من تعلم منهم يقولون بأنه كلام الله غير مخلوق، فأنجاه الله من بطش الظالمين بعد وقت قصير بوفاة هذا الوالي²².

ليمكنه الله فيما بعد من القاضي ابن أبي الجواد المعتزلي، ولعل الله استجاب دعوة سحنون فقد ذكر القاضي عياض أن "سحنون مرّ يوماً بابن أبي الجواد، فدار منه فقال: اللهم لا تمتني، حتى أراه بين يدي قاض عدل يحكم فيه بالحق، فعزل وولي سحنون، فامتحنه فقال الناس: أجيبته دعوته"²³، وقد حبسه ونكل به إلى أن مرض ومات، وكان سبب ذلك أن رجل خاصمه إلى سحنون، وقيل أنه شهد عليه بوديعة قبضها عليه فأنكرها، وهذه الواقعة تكفي لتدليل على مدى شدته في التعامل مع أهل البدع وطريقة التعامل معهم، ونقوي الرأي هاهنا بقول القاضي عياض "بل فعل ذلك لما كان عليه من البدعة"، أي حبسه وقتله لم يكن بسبب الوديعة بل كان لما كان عليه من القول بخلق القرآن²⁴.

أما فيما يخص المذاهب السنية فقد كان متسامحا وكانت علاقته مع الأحناف حسنة وخير دليل هو اقتراحه لسليمان بن عمران من أجل تعيينه قاضيا بعد جمع محمد بن الأغلب للفقهاء ومشاورتهم في الأمر²⁵ ، وبعد تولي سحنون للقضاء عينه كاتباً له، وبعدها عينه قاضياً على باجة والأريس وبجاية رغم كونه حنفياً²⁶ ، مع السماح له بأن يقضي بين الناس حسب مذهبه الحنفي²⁷ ، وهذا لا يعني اقتناعه بالمذهب الحنفي وعدم مخالفته وإنما الظروف الراهنة حتمت عليه ذلك كون المذهب الحنفي كان واسع الانتشار قال القاضي عياض: "وأما أفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين"²⁸ ، حتى أنه كان أكثر انتشار من المذهب المالكي، كما أنه مثل المذهب الرسمي للدولة العباسية، وربما أراد سحنون بهذا التقرب إلى الحنفية تشكيل تحالف سني ضد الفرق الأخرى خاصة المعتزلة والإباضية

2.2: جلوس سحنون للتدريس وأثر ذلك على التعريف بالمذهب

ومما ساهم بنشر المذهب المالكي بشتى أصقاع الغرب الإسلامي هو جلوس سحنون للتدريس بنفسه لطلبته فسمعوا منه موطأ الإمام مالك بالإضافة جوامع ابن وهب وطبعا مؤلفه المدونة والتي كانت في الأصل مجموعة من المسائل في الفقه، و لم يتكلف في ذلك أو يترفع عن نشر العلم مهما كان الظروف فألقى الدروس حتى أمام بيته²⁹ ، وامتاز بحسن الخلق مع طلبته يجرهم تارة إذا أسأوا والخلق ويعتذر منهم ويصالحهم فقد ذكر فقد قال لهم يوما ويعلم الله ما أصبح عليكم إلا لأؤدبكم بعد حادثة له معهم نهاهم فيها عن أمر وضاق عليهم ذلك³⁰ ، وهذه الطريقة في التعامل ساعدت على نشر مكارم الأخلاق بين من صاحبه وتعلمذ على يديه سائر على



درب الإمام مالك رحمه الله والذي كان مبدأ طلبه للعلم بوصية أمه التي لما جهزته لطلب العلم أوصته بالأخذ بالأدب قبل العلم "أذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه"³¹.

ومن خلال إلقاءه للدروس كان يرغب طلبته في إتباع المذهب المالكي مستعينا في ذلك ببعض الأقوال ومستشهدا على ذلك، ومما يستدل به هنا أنه كان يقول لطلبته: من أخذ بفتيا مالك ما ترك من الورع شيئا³²، دون أن نغفل أمر الإخلاص في العمل فقد كان غايته من كل هذا وجه الله عز وجل ولم يكن همه الدنيا قال سليمان سمعته يقول في طلبته: "ما أريد منهم إلا لعل الله ينفعني بواحد منهم"³³، وقد اختلف إليه طلبة من كل أنحاء المغرب وبدورهم ساهموا في نشر المذهب المالكي بعد عودتهم إلى بلدانهم فقد كان له في كل بلدة نحو سبعمائة رجل ظهروا بصحبته وانتفعوا بعلمه³⁴، ولم يقتصر حضور مجالسه على طلاب العلم بل كان عامة الناس والعباد يحضرون مجلسه، قال القاضي عياض: "كان الذين يحضرون مجلس سحنون من العباد أكثر من يحضره من طلبة العلم، كانوا يأتونه من أقطار الأرض"³⁵، وقد بارك الله له في علمه وأصحابه مما مكن للمذهب في البلاد.

تكفل هؤلاء الطلبة بحمل تلك الأفكار إلى بلدانهم وساهموا في نشر المذهب، فمنهم محمد بن باز القرطبي وأحمد بن الوليد اللذان سمعا من سحنون كان لهما شأن في الأندلس، هذا ورحل بعض من أهل القيروان الذين أخذوا عنه لمختلف المناطق³⁶، كما أن تعيينات سحنون للقضاة وأعوانه كان يختارهم من أصحابه في

الغالب، فقلد وظيفته صاحب كشف الشهود محمد بن عبدوس (60هـ/873م)، وولي قضاء قسطنطينية عبد الله بن سهل القرباني (49هـ/863م) وحتى الذين أقرهم في مناصبهم كان ممن هو على مذهبه مثل شجرة بن عيسى المعافري (262هـ/875م) الذي كان قاضيا على مدينة تونس، وكان هذا الإلتشار للطلبة والأعوان من وسائل التعريف بالمذهب المالكي ونشره³⁷.

3.2: شخصية سحنون بن سعيد وتأثيرها على أهل المنطقة

كما كان لشخص سحنون و أخلاقه الدور الكبير في نشر المذهب المالكي، استفاد سحنون من أصله العربي وإقامته بالقيروان التي صارت حاضرة علمية يقصدها الطلبة من كل الأنحاء، وقد تفوق في هذا على شيخه علي بن زياد والذي كان له السبق في إدخال المذهب إلى البلاد وكان سحنون يقصده في تونس لطلب العلم كلما توفرت له نفقة لذلك³⁸، أما من ناحية التعامل فالبرغم من مكانته العلمية إلا أنه كان ذو أخلاق حميدة متواضعا في مأكله ومشربه ومركبه غير مبالي بما كان يشتهر به أصحاب الرياسة والسلطان في ملبسهم ومركبهم ذكر المالكي أنه: كان يركب بلجام من حديد ليس عليه فضة وله برنس أسود يلبسه أيام البرد والرياح، وكان رحمه الله يقضي حاجاته فيشتري بنفسه البصل من حانوت جامع العطار ويأخذه معه ويجلس للتدريس تواضعا لله عزوجل، مخالفا بذلك سنن أصحاب الشأن والذين عادة ما يوكلون الخدم والموالي لذلك³⁹، وبالتالي التأثير على طلبة العلم وعامة الناس والإقتداء به علما وعملا.

وهذه الأخلاق نتاج رحلته العلمية إلى المشرق فالإضافة إلى طلب العلم أخذ عن أهل مدينة رسول الله ﷺ الآداب وطريقة العيش وقلدهم في كل شيء قال



سليمان بن سالم: "تأدب سحنون بأدب أهل المدينة حتى في طريقة العيش"⁴⁰، أضف إلى هذا الصدع بقول الحق والصمود عليه دون في وجه أي كان وله مواقف سبق ذكرها في محنته، واستمر على هذا النحو حتى بعد توليه القضاء جاء في المدارك: "كان سحنون قبل أن يلي القضاء أشرف منه بعد ما ولي"⁴¹، فقد كان بنكر بشدة التقرب إلى السلاطين وأصحاب الحكم وأغلط في هذا الإنكار خاصة على أهل العلم، وروي عنه ذمه للعالم الذي يترك مجلسه ويقصد الأمراء والولاة والقضاة وشبهه بعلماء بني إسرائيل⁴²، وكان هذا من صفات شيخ الأمة مالك الذي عرف عنه أيضا تجنبه مجالس الخلفاء وله في ذلك ما هو مشهور مع الخلفاء العباسيين، وذهب إلى أبعد في النكران على التقرب من ذوي السلطان فقال: "إذا جاء الرجل مجلس القاضي ثلاثة أيام متوالية بلا حاجة فلا تقبل له شهادة"⁴³.

وعن نفسه ترفع عن مصاحبة السلاطين والملوك مخافة الافتتان بهم والركود إلى الدنيا، وجعل مبدأه أن خير قوت الرجل من كسب يده فإن ذلك يغنيه عن الحاجة إلى الناس وما فيه من انتقاص للإنسان ومذلة كبيرة، فإن توفر له مال حلال اعتمد عليه وتفرغ للعبادة، وأبغض أكل أموال الناس بالعلم والقرآن وفضل التسول على ذلك⁴⁴، وتعداه حتى ترفع عن أخذ أجرته عن ولاية القضاء، وألزم نفسه لو أبتلي بالقضاء لن يأخذ شيء من وراءه لا في مأكلا ولا مشرب ولا لباس ولا ركوب⁴⁵، وصدق في ذلك فبعد توليه القضاء كانت نفقته طيلة مدة توليه ذلك من أرضه التي ورثها، ولم تغره أموال الولاة فقد قال لأحد الأمراء لو أعطني ما في بيت مالك لن

أقبله، ولم يرفض هذا الأمر عن حرمة إنما تورعا لله سبحانه وتعالى، واكتفى بدفع أجر أعوانه من جزية أهل الكتاب⁴⁶.

وساهمت قوة شخصية سحنون في قول الحق في محبته الناس له والالتفاف حوله، وكان لمقارعتة السلطان خير مثال على تلك الشخصية المستميتة في الدفاع عن شرع الله وما يضمنه من حفظ للنفس والمال والعقل، سواء كان في مركز قوة أو ضعف لا يغير من رأيه في ما هو في اعتقاده، وسبق ذكر محنته مع ابن أبي الجواد، ثم استمر على هذا النحو فلم يقبل وظيفة القضاء إلا بعد إذعان الوالي لجميع شروطه ومن ضمنها جعل الناس سواسية أمام القضاء فلا فرق بين حاكم ومحكوم، بل واشترط على الوالي أن يبدأ بأهل بيت وأعوانه ومقربيه، ويرد مظالم الناس التي كانت عليهم ولم يتجرأ أحد من القضاة قبله على الخوض في هذا الموضوع.

لا يهاب سلطانا في الحق يقيمه وكان رده على الوالي خذلني خذلك الله، لما طلب منه الكف عن محاسبة أعوانه والغلظة في ذلك وعدم قبول الوكلاء عنهم في التقاضي بعدما شكوه له، فمكان من الأمير إلا الركون لذلك بحكم غلبة سحنون له لأنه على حق وهذا أمر الله⁴⁷، كما أنه استخلص بعض الحرائر أسرهم بعض قادة بني الأغلب في الحروب، ولما بلغ ذلك الأمير أرسل إلى سحنون بردهن فما كان منه إلا أن حلف بعدم ردهن فان أراد ذلك عزله من القضاء وأرسل ابنه محمد بالسجلات له، فما كان من الأمير إلا أن ينثني عن أمره ويدعو له بالخير، وقد تركت هذه الحادثة الأثر الطيب في قلوب أهل القيروان فشكروه والأمير وأثنوا عليهم⁴⁸.



2.4: القيمة العلمية لكتابه المدونة

دون أن نبخس حق الصرح العلمي الذي أسسه الإمام سحنون والمتمثل في كتابه المعروف بالمدونة، والتي تميزت بسهولة الأسلوب وحسن تنسيق الألفاظ، كما أنها قسمت إلى فصول وأبواب⁴⁹، وكانت مقدمة على باقي الكتب والدواوين المؤلفة في المذهب المالكي عند الفقهاء بعد موطأ الإمام مالك، "ويروى أنه ما بعد كتاب الله أصح موطأ مالك رحمه الله، ولا بعد الموطأ ديوان أفيد من المدونة"، فهي عند الفقهاء المالكية بمنزلة كتاب سيبويه عند النحويين⁵⁰، فعدت ذات قيمة علمية ومكانة عالية بين القوم حتى حفظها عن ظهر قلب وعدوا بالآلاف من حفظوها، وأعيد كتابتها من صدور الرجال بعد ضياعها أو حرقها في فترات لاحقة⁵¹، فكانت المدونة مقدمة على باقي الكتب بعد الموطأ في الفتوى وكان متأخري الشيوخ "إذا نقلت لهم مسألة من غير المدونة وهي في المدونة موافقه لما في غيرها عدوه خطأ فكيف إذا كان الحكم في المدونة خلاف ما في غيرها؟"⁵².

وحرص سحنون على النصح بها لما لها من فائدة، قال سحنون: "عليكم بالمدونة فإنها كلام رجل صالح، وروايته: وكان يقول إنما المدونة من العلم بمنزلة أم القرآن من القرآن تجزي في الصلاة عن غيرها، ولا تجزي غيرها عنها، أفرغ الرجال فيها عقولهم، وشرحوها وبينوها فما اعتكف أحد على المدونة ودارسها إلا عرف ذلك في روعه، وزهده، وما عداها إلى غيرها إلا عرف ذلك فيه، ولو عاش عبد الرحمان أبداً ما رأيتوني أبداً"⁵³.

وأصل المدونة هي الأُسدية والتي جمعت آراء المدرسة العراقية والمالكية، فلما رجع أسد إلى المدينة ليسأل مالك عن ما دونه عن أهل العراق، لم يلحق به لسبق الأجل، فعرضها على أبي القاسم وعاد بها إلى بلاده، ثم رحل بها سحنون إلى أبي القاسم ونحى عنها وكتب إلى أسد أن يصحح ما عنده على سحنون فأبى ذلك وبلغ أبو القاسم ما كان من أسد فدعا ألا يبارك الله فيها، فأهملت الأُسدية وشاعت المدونة⁵⁴، وقد لقيت المدونة اهتماما كبيرا وتم دراستها والعناية بها وظهرت لها عدة مختصرات نذكر منها على سبيل المثال: المختصر الذي وضعه محمد بن عبد الله بن شبطون الطليطلي (319هـ)، ومختصر ابن زمنين (399هـ) والمعروف بالمغرب، ومختصر ابن أبي زيد القيرواني (386هـ) الذي حل محلها في التدريس وألغت مكانته المختصرات الأخرى، ومنها مختصر الخليل الذي بلغ فيها صاحبة غاية الاختصار⁵⁵.

خاتمة:

يمكن الجزم بأن سحنون جعل بلا المغرب الإسلامي تنضم رسميا إلى المذهب المالكي وجعل منه المذهب الغالب على البلاد والأكثر انتشارا وهذا بتوافر مجموعة من المعطيات والتي ساعدت على ذلك

تكوينه العلمي والذي كان على يد ثلة من العلماء الأفاضل خاصة ابن القاسم والذي بدوره كان تلميذ صاحب المذهب الإمام مالك رحمهم الله جميعا جعل منه عالما مشهود له بالتفوق والدراية، بالإضافة إلى رحلته العلمية والتي من خلالها تخلق بأخلاق أهل المدينة حتى في طريقة العيش واستن بسنة أصحاب رسول الله، فكان لحسن أخلاقه ورفعته وسيلة لكسب قلوب أهل المنطقة



جلوس سحنون للتدريس بنفسه والحرص على النصح باتباع المذهب المالكي والترغيب في ذلك بالحجج والبراهين خلق جيل من طلبته وأتباعه كان لهم الأثر الواضح في نشر المذهب في عدة مناطق

ولايته القضاء ساهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في توسع رقعة المذهب فكانت الأحكام والفتاوي الصادرة مالكية والتزم العامة بها عن طيب خاطر، وحسن ولايته القضاء جعل الولاية يحرضون على تولية القضاء للفقهاء المالكية من بعده

ساهمت أيضا ولاية سحنون للقضاء في توجيه ضربة موجعة لأهل الأهواء والبدع واستغل سحنون منصبه لتقوية مكانة المذاهب السنية بالأخص المذهب المالكي والتضييق على الفرق الضالة خاصة المعتزلة والخوارج بطرق وأساليب مختلفة

ومما حبه وسط الناس قوة شخصيته ومواقفه البطولية في الوقوف مع الحق ونصرته خاصة مع أصحاب الشأن والمناصب مما شجعه على إتباعه والإقتداء به

ومما لاشك فيه القيمة العلمية لمؤلفه المدونة والذي غدت مرجعا علميا أساسيا لطلبة العلم انكبوا عليها بالدراسة والشروح والاختصارات لما حوته من فوائد وما تميزت به من سهولة الأسلوب بالإضافة إلى تقسيماتها وتبويبها.

قائمة المصادر والمراجع:

ابن رشد القرطبي: المقدمات الممهديات، ت أحمد سعيد عراب، ط1، دار الفكر الإسلامي، بيروت، 1408هـ/1988م

ابن منظور: لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان، 1414هـ/1993م

أبو العرب محمد بن تميم : طبقات علماء إفريقية، ت محمد بن أبي شنب، دار الكتاب اللبناني، الجزائر، 1914م.

أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي : المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية وأندلس والمغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1401هـ/1981م،
أبي بكر عبد الله بن يونس الصقلي: الجامع لمسائل المدونة والمختلطة، ت أبو الفضل الدمياطي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971م،

الجديدي: مباحث المذهب المالكي بالمغرب، ط1، مكتبة المعارف، الرباط، 1993م

خير الدين الرزكلي: الأعلام، ط15، دار الملايين، بيروت، 2002م

الدباغ عبد الرحمان بن محمد الأنصاري: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ت محمد الأحمدى، محمد ماضيو، ط2، مكتبة الخانجي، مصر، 11388هـ/1968م،

الزبيدي: تاج العروس، ت محمد هلالى، ط2، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1407هـ/1987م

شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ت شعيب الأرنؤوط، ط11، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1417هـ/1996م.

القاضي عياض: تراجم أغلبية، ت محمد الطالبي، الجامعة التونسية، تونس، 1968م

القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أصحاب الإمام مالك، ت محمد تاويت الطنجي وآخرون، ط2، وزارة الشؤون والأوقاف الإسلامية، المغرب، 1403هـ/1983م.

محمد زينهم عزب: الإمام سحنون، دار الفرحاني، القاهرة، 1992م.

محمد محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط1، دار المنار، القاهرة، 1408هـ/1988م،

موسى هيصام: التمكين للمذهب المالكي بالمغربين الأدنى والأوسط بين القرنين الرابع والسادس الهجري، كنوز الحكمة، الجزائر، 1434هـ/2014م



نجم الدين الهنتاتي: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري
الحادي عشر الميلادي، تير الزمان، تونس، 2004م
الهوامش

- ¹ ابن فرحون المالكي: المصدر السابق، ج 2، ص 31
- ² أبو العرب: المصدر السابق، ج 1، ص 102
- ³ القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ج 4، ص 46
- ⁴ نجم الدين الهنتاتي: المرجع السابق، ص 46
- ⁵ القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ج 4، ص 47
- ⁶ نجم الدين الهنتاتي: المرجع السابق، ص 46/47
- ⁷ القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ج 4، ص 47
- ⁸ نجم الدين الهنتاتي: المرجع السابق، ص 47
- ⁹ موسى هيصام: التمكين للمذهب المالكي بالمغربين الأدنى والأوسط بين القرنين الرابع والسادس الهجري، كنوز الحكمة، الجزائر، 1434هـ/2014م، ج 1، ص 60
- ¹⁰ أبو العرب: المصدر السابق، ج 1، ص 102
- ¹¹ المالكي: المصدر السابق، ج 1، ص 353
- ¹² القاضي عياض: تراجم أغلبية، ت محمد الطالبي، الجامعة التونسية، تونس، 1968، ص 93
- ¹³ ابن فرحون المالكي: المصدر السابق، ج 2، ص 37
- ¹⁴ نفسه، ج 2، ص 33
- ¹⁵ القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ج 4، ص 56/57، موسى هيصام: المرجع السابق، ج 1، ص 61

- ¹⁶ القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ج4، ص61
- ¹⁷ ابن فرحون المالكي: المصدر السابق، ج2، ص36
- القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ج4، ص64/57
- ¹⁸ موسى هيصام: المرجع السابق، ج1، ص62
- ¹⁹ القاضي عياض: تراجم أغلبية، المصدر السابق، ج1، ص104
- ²⁰ الدباغ: المرجع السابق، ج2، ص93
- ²¹ زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (172هـ/788م، 838/223م) رابع الأمراء الأغلبية ولي سنة 201هـ، وجاءه التقليد من قبل الخليفة العباسي المأمون، عرفت البلاد في فترة حكمه اضطرابات وفقد الكثير من مناطق نفوذه ثم قوي أمره ووجه أسطولاً إلى صقلية، وهو من بنا جدارسوسة، خير الدين الزركلي: الأعلام، ط5، دارالملايين، بيروت، 2202، ج3، ص57
- ²² فرسحنون إلى عبد الرحيم الزاهد، فوجه إليه رجل يقال له ابن السلطان وكان مبغضاً لسحنون فلما وصل إليه شق عليه أمره، فطلب من سحنون بالذهاب حيث شاء والنجاة بنفسه، غير أن سحنون رفض ووجه معه إلى الأمير وجرى ما تم ذكره من مساءلته، فرأى جماعة بقتله، ومنهم ابن أبي الجواد الذي قال فاقتله ودمه بعنقي، ثم وضع تحت ما يسمى بالإقامة الجبرية حالياً مع منعه من الفتيا وإعطاء الدروس، وقد ذكرت أحداث تنبئ النية بقتله وما ترك إلا خوفاً من الفتنة. الدباغ، انظر: الدباغ: المرجع السابق، ج2، ص97/94، القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ج4، ص73/71
- ²³ نفسه، ج4، ص55
- ²⁴ القاضي عياض: تراجم أغلبية، المصدر السابق، ج1، ص106
- ²⁵ القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ج4، ص56
- ²⁶ القاضي عياض: تراجم أغلبية، المصدر السابق، ج1، ص102
- ²⁷ نجم الدين الهنتاتي: المرجع السابق، ص52
- ²⁸ القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ج1، ص25



- 29 نفسه ج 4، ص 54
- 30 المالكي: المصدر السابق، ج 1، ص 368
- 31 ابن فرحون المالكي: ج 1، ص 99
- 32 نجم الدين الهنتاتي: المرجع السابق، ص 50
- 33 المالكي: المصدر السابق، ج 1، ص 373
- 34 الدباغ: المرجع السابق، ج 2، ص 93
- 35 القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ج 4، ص 73
- 36 محمد محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط 1، دار المنار، القاهرة، 1408 هـ/1988 م، ص 460/459
- 37 نجم الدين الهنتاتي: المرجع السابق، ص 56/55
- 38 المالكي: المصدر السابق، ج 1، ص 353
- 39 المالكي: المصدر السابق، ج 1، ص 365
- 40 نفسه ج 1، ص 364
- 41 القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ج 4، ص 59
- 42 المالكي: ج 1، ص 357
- 43 الذهبي: المرجع السابق، ج 12، ص 65
- 44 المالكي: المصدر السابق، المصدر السابق، ج 1، ص 364
- 45 المالكي: نفسه، ج 1، ص 357
- 46 القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ج 4، ص 59
- 47 نفسه، ج 4، ص 56/63
- 48 الدباغ: المرجع السابق، ج 2، ص 93/92
- 49 محمد زينهم عزب: المرجع السابق، ص 186

- ⁵⁰ ابن رشد القرطبي: المقدمات الممهّدات، ت أحمد سعيد عراب، ط1، دار الفكر الإسلامي، بيروت، 1408هـ/1988م، ج1، ص45
- ⁵¹ عمر الجيدي: مباحث المذهب المالكي بالمغرب، ط1، مكتبة المعارف، الرباط، 1993م، ص70/69
- ⁵² أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية وأندلس والمغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1401هـ/1981م، ج12، ص24/23
- ⁵³ القاضي عياض: المدارك، المصدر السابق، ج3، ص300
- ⁵⁴ ابن رشد القرطبي: المرجع السابق، ج1، ص45
- ⁵⁵ أبي بكر عبد الله بن يونس الصقلي: الجامع لمسائل المدونة والمختلطة، ت أبو الفضل الدميّاطي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971م، ج1، ص55/54ش